Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى المؤلفات البلاغية على بعض مقولات تجعل السجع ضرورة يقتضيها المعنى، فمنذ أوائل القرن الثالث الهجرى توقف الجاحظ فى كتابه "البيان والتبيين" عند ذلك البعد العقدى الذى فجّر مسلك الجدل والنفور من السجع، وكان له فى ذلك رأى معتدل، فقد أهلت نظرته للسجع الجيد، فى إطار تنبيه لوصايا عبد الصمد الرقاشى ومحدّثيه، إلى اجتياز موقف النفور والرفض للسجع، منطلقًا من مقارعة النماذج المتكلّفة بنماذج أخرى سلّم لها بالجودة. وأخذ يستقى منها العناصر التى تعد من مقومات السجع الحسن، فيذكر فى "البيان والتبيين" أن جودة السجع تتعيّن "إذا لم يَطُلْ ذلك القول، ولم تكن القوافي مطلوبة مجتلبة، أو ملتمسة متكلّفة، وكان ذلك كقول الأعرابى لعامل الماء "حُلِّئت ركابى، وخُرِّقت ثيابى، وضربت صحابى"[1]... قال: أوسجع أيضا؟ فقال الأعرابى: فكيف أقول؟ لأنه لو قال: حُلِّئت إبلي أو جمالى أو نوقى أو بعرانى أو صرمتى لكان لم يعبّر عن حق معناه، وإنما حُلِّئت ركابه، فكيف يدع الرِّكاب إلي غير الركاب؟ وكذلك قوله: وخرِّقت ثيابى، وضربت صحابى؛ لأن الكلام إذا قلّ وقع وقوعا لا يجوز تغييره، وإذا طال وجدت فى القوافى ما يكون مجتلبا ومطلوبًا مستكرهًا"[2].

هكذا يرجع الجاحظ جودة السجع فى كلام الأعرابى إلى توافر قصر التراكيب السجعيّة. فكل جملة هى مكون تركيبى أصغر، إذ تتكوّن نحويًا من لفظتين [فعل مبنى للمجهول، ونائب عن الفاعل]. وقلّة عدد المفردات الداخلة فى تركيب الجملة كانت كفيلة -فى تصوّر الجاحظ- بأن توفِّر للكلام نقاءه من صفة التكلّف.

فالقضية بالنسبة للأعرابى ليست قضية السجع ولا التأثير الصوتى، وإذا كان هناك قيمة جمالية تخلّفها المحافظة على التكرار الصوتى فإن تلك القيمة لا تظهر حرّة من الانشغال بمدلولات هذه الدوال التى لم يجد الأعرابى عنها حولا. فكلمة مثل (ركابى) تحمل معنى لا تستطيع المفردات (إبلى، نوقى، بعرانى) تأديته؛ ذلك أن تلك المفردات لا تمثِّل معادلاً معنويًا مطابقًا لواقع إبل هذا الأعرابى التى لها دور محدد، وهو أنها تركب، وهذا ما توخى الأعرابى إبرازه

---

(١) حُلِّئت ركابى: أى منعت إبلى من الماء والكلأ. والركاب: ما يركب من الإبل.

(٢) البيان والتبيين، الجاحظ، جـ١، ص ٢٧٦.